

البَابُ التَّاسِعُ

إمام أهل الرأي

« علمنا هذا رأي فن جاءنا بأحسن منه قبلناه »
« أبو حنيفة »

كان أبو حنيفة قياساً « يقيس المسألة على أخرى ليردها إلى أصل من أصول الكتاب والسنة واتفاق الأئمة فيجتهد ويدور حول الاتباع » كما قال :

أو كما قال في وصيته لزوح بن مريم عندما ولي نوح القضاء بمرو :
« إن أبواب القضاء لا يدركها إلا العالم التحرير . . فإذا أشكل عليك شيء من ذلك فارحل إلى الكتاب والسنة والإجماع ، فإن وجدت ذلك ظاهراً فاعمل به ، فإن لم تجده ظاهراً فرده إلى النظائر واستشهد عليه الأصول ، ثم اعمل بما كان إلى الأصول أقرب وبها أشبه » .

كان القياس هو النبع الذي سال منه فقه أبي حنيفة فبلغ هذا الشأن البعيد من التفصيل والشمول والانتشار ، وأضحى في تناول الكافة حلول لكل ما يعرض لهم من شئون المعاش والعبادات .

ولم يكن من ذلك بد ، فالناس في بحر الحضارة الجديدة أحوج ما يكونون إلى معالم تعين حدوده وأدوات تتيح لراكبيه أن يسبحوا فيه . ولا غنى في تلك القلة النادرة من الآيات أو الروايات ، لأن النصوص متناهية والوقائع غير متناهية ، والذي له نهاية لا يضبط شيئاً بلا نهاية .

فإما أن يترك الناس مع أهوائهم في المتاهات ، وإما أن يقفوا لتقاءها ، جامدين ، فلا يكون بد من التوقف المؤدى إلى تعطيل التكليف أو إلى مالا يطاق ، وإما أن يؤذن الناس بالاجتهاد ، لأن الوقائع لا تختص بزمان دون زمان .

وفي بلد متحضر كالعراق ، حيث تجمعت قوى الإسلام لتنتقل في مضمار الحضارة ، كانت تتمتع أمور ذات بال تدفع الفقيه إلى الابتكار : فلا معدى عن الاجتهاد بالنسبة للعالم والقاضى والكافة باستنباط القواعد العامة من الشريعة لتقاس عليها المسائل التي تحدث للناس .

والقياس في كتاب الله كثير ، من ذلك قوله تعالى : (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَيَّ

الرَّسُولُ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) ،
وأول أبواب الاستنباط وأعلىها هو القياس :

وفي السنة اجتهادات وقياسات كثيرة : قصد إلى الرسول رجل ينكر ولدأ
له رآه جاء أسود فقال عليه الصلاة والسلام : « هل لك إبل ؟ » قال : نعم .
قال : « ما ألوانها ؟ » قال : حمر . قال : « هل فيها من أورك ؟ » قال :
نعم . قال : « فن أين ؟ » قال الرجل : لعله نزعة عرق » قال : « وهذا لعله
نزعة عرق . » .

قال ذلك عليه الصلاة والسلام من أربعة عشر قرناً ويقولاه العلم الآن .
واجتهد النبي اجتهادات صححها القرآن : وفي بعض ذلك قواه سبحانه :
(يا أيها النبي لم تحرم ما أحلَّ الله لك تبتغي مَرْضَاتٍ أَزْوَاجًا) ، ولما
أذن للمنافقين في التخلف عن غزوة تبوك نزل قوله تعالى : (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ
لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) .

بل إن من اجتهاداته عليه الصلاة والسلام ما صححه الصحابة أنفسهم ،
كيوم نزوله في بدر دون الماء فليل له بوحى أم برأى ؟ .

أما اجتهادات الصحابة ، فكانت كالعلامات التي تشير إلى ما تحت
الثرى من كنوز : أمر النبي صبحه يوم الأحزاب بأن يصلوا العصر في بني
قريظة ، فاجتهد بعضهم فصلوها في الطريق ، قائلين إن النبي أراد السرعة ، وأبى
آخرون إلا أن يصلوها في بني قريظة فصلوا هنالك ليلاً - ودؤلاء هم ساف
أهل الظاهر - الذين يتمسكون بظاهر النصوص : أما الأولون فهم الآباء الفكريون
لأصحاب القياس والاجتهاد .

ولما كان علي بن أبي طالب باليمن اختصم إليه ثلاثة نفر في غلام وقعوا
على أمه في طهر واحد فقال لاثنين منهم : طيبا بالولد لهذا . قالوا : لا . قال
لاثنين فيهما الثالث : طيبا بالولد لهذا قالوا : لا . قال : أنتم شركاء متشاكسون :
إني مقرع بينكم . ففرع بينهم وجعل الولد للقارع ، وجعل عليه للرجلين ثأني
الدية .

فبلغ ذلك الحكم النبي فضحك حتى بدت نواجذه من قضاء علي .

واجتهد صحابيان خرجا في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فصليا ثم وجدا الماء . الوقت فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر فصوبهما النبي وقال للذي لم يعد أصبت السنة وأجزأتك صلاتك ، وقال للآخر : لك الأجر مرتين . ولما قتل خالد بن الوليد قوماً قالوا : صبأنا . قال النبي : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » ووداهم من مال المسلمين لا من مال خالد وعذره لاجتهاده . لكن الصحابة لم يكونوا كلهم عليا ولا عمر وأمثالهما فكانوا يتخرجون دين القياس أو الاجتهاد ، وكان التابعون كمثلهم بل أشد حرجاً . . . كان سعيد بن المسيب واسع الفتيا حتى لسمى سعيد بن المسيب الجريء ، فكان الرجل يلخل فيسأل عن الشيء فيدفعه الناس من مجلس إلى مجلس حتى يدفع إلى مجلس سعيد بن المسيب كراهية للفتيا .

ولقد أثر عن حذيفة أنه قال : « إنما يفتي الناس أحد ثلاثة : رجل يعلم ناسخ القرآن ومنسوخه وأمير لا يجد بدءاً أو أحق متكاف » ، فقال ابن سيرين : فأنا لست أحد هذين فأرجو ألا أكون أحق متكلفاً . حتى إذا جاء أبو حنيفة وضع يده على تلك الأداة بشئ أسمائها (القياس . أو الاستنتاج . أو الاجتهاد . أو الرأي) وقلبها في كفه كعصا موسى ، فجاءت بالأعاجيب .

ومضى الأئمة على غراره ويجرى المجتهدون في غباره ، اللهم إلا أشياخ داود الأصفهاني (الظاهري) الذين يقولون بأن العمدة على ظاهر النص ، وإن في عمومات النصوص كفاية للأمة ، وقد درس مذهبهم .

وإذا بتلك الثروة الضخمة من التشريع الإسلامي تربو وتمحو حتى ترفع الفقه الإسلامي إلى مستواه الرفيع العالی بين مستويات الشرائع المقارنة تطامح إليه في قممه الشوامخ . ذلك الفضل من الله أنه أبا حنيفة . وهو الذي جعل الشافعي يهتف بذكره قائلاً : « من أراد أن يعرف الفقه فليزِم أبا حنيفة وأصحابه فإن الناس كلهم عيال عليه في الفقه » .

وانتقلت هذه العصا السحرية إلى اللغة والنحو كما يذيع الخبير ، ويشيع النور ، وتنتقل الصحة - والصحة تعدى كما يعدى المرض - فإذا بالقياس

في البصرة والكوفة يهيب اللغة العربية طرازات كأنها الاختراعات . . فلو كنت من أهل البوادي في ذلك الزمان ممن يعولون في اللغة على السماع وحده كهؤلاء الذين كانوا يعولون في الفقه على النصوص وحدها ، ثم جئت إلى مصر أو إلى الشام بله العراق - بعد أن أعمل علماء الكوفة والبصرة في اللغة آلة القياس - لظننت أن العربية التي تسمعا ليست هي العربية التي تعهدا .

كان أبو حنيفة منطقيًا ، والمنطق جوهره القياس ، فليس كالشرع مضمار لفارس هذه كفاياته .

وإذا كانت الشريعة معقولة المعنى ، فلماذا لا يتعرف المجتهد ، باستقراء الأحكام الشرعية ، وجوه المصلحة في النصوص ليستخرج منها القواعد العامة التي يقوم الشرع عليها ، ويلحق مالا نص فيه بما فيه نص لا تحاد علة الحكم في الأمرين ؟ وما دامت الشريعة منوطة بمصالح العباد فلا بد من أن تتفق أوصاف أحكامها مع أسبابها من دفع ضرر أو جلب نفع .

فالقياص الصحيح دائر مع أوامر الشريعة ونواهيها وجوداً وعدمًا ، كما أن المعتبر دائر مع أخبارها وجوداً وعدمًا ، فلم يخبر الله ولا رسوله بما يناقض صريح العقل ولم يشرع ما يناقض العدل . وعلى ذلك ففي كل ما يمكن أن يحدث من الأحداث حكم للإسلام سواء بنص أو باجتهاد حيث لا نص .

وإذن فليعمل المفكرون فكرهم في تعرف العلال وإضافة الأحكام إليها وضبط النتائج ، وتفريع الفروع ، في فهم وإحاطة لخاق الأحكام وإبتكار الآراء ، وفي ذلك تتفاوت الملكات ، وتتميز الكفايات من الكفايات ، كتميز الزجاج من البلّور وتميز البلّور من الماس ، ذلك يخرقه الشعاع بلا حائل وذلك يعكس الأضواء بعض الانعكاس ، أما الماس فهو الماس ، يعكس الشعاع ألف شعاع ويسكب فيها فيوضاً من النور والبهجة والائتلاق .

لقد طالما نزل أبو حنيفة إلى معارك المتكلمين في صدر شبابه فخالف هذا النزال أثره في ملكة الحدال ، وربط حاضره بماضيه في حياة عملية ذات ألوان وأحداث .

والجدال هو العدة الأولى للعقل الفقهي سواء في الفقه أو القضاء أو الدفاع لأنها جميعاً تقوم على التعليل أو التسبيب أو الموازنة أي على القياس .

لم يك أبو حنيفة إلا غلاماً طرى الإهاب عندما صحب الشعبي في سفينة فسمع الشعبي يقول : « لا نذر في معصية ولا كفارة فيه » ، فاستوى الفتى الرشيح الفهم ، مناضلاً راشق السهم ، يقول : « بل فيه الكفارة لأن الله سبحانه وتعالى جعل في الظهار الكفارة بعد أن جعله معصية فقال : (وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا) وقد أوجب فيه الكفارة ..) فلم يجر زعيم المحدثين جواباً سوى أن قال : أقياس أنت ؟ .

والظهار لغة هو أن يظاهر الرجل من امرأته إذا قال لها ، أنت عليّ كظهور أمي ، وشرعاً هو تشبيه المسلم زوجته أو جزءاً منها بحرم عليه ، مؤيداً .

ولو امتد الأجل بالشعبي أعواماً لجاءته الأيام بالحواب عن أبي حنيفة .

إنه لثي المسجد ذات يوم والأبيض بن الأعز يقايسه في مسألة يدبرونها بينهم ، إذ صاح من ناحية المسجد فتى أزله الخلق الشكس فقال : ما هذه المقايسات ؟ دعوها فأول من قاس لإبليس ، فلم يغضب أبو حنيفة لأن الغضب خلة لسلب الحججة ، بل أقبل على الفتى يكتبه بأى الكتاب ، فذلك أدنى ألا يرتاب . قال : يا هذا وضعت الكلام في غير موضعه ، إبليس رذ على الله سبحانه وتعالى أمره فقال سبحانه وتعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) . وقال تبارك وتعالى (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) . وهذا القياس الذي نحن فيه نطلب فيه اتباع أمر الله تعالى لأننا نرده إلى أصله ، أمر الله تعالى في كتابه ، أو إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو إلى قول الأئمة من أصحابه والتابعين ، فاتبعنا أيضاً في ردنا كتاب الله وسنة رسوله والإجماع : فنحن ندور حول الاتباع فتعمل بأمر الله تعالى ، وإبليس حيث قاس خالف أمر الله تعالى ورده فكيف يستويان ؟

أتت الفتى هذه الحجج بفتة فبهتته ، وكأنما أحاطت به خطيئاته ، فرأى العذاب وتقطعت به الأسباب وراح يقول : غلظت يا أبا حنيفة وتبت ، نور الله قلبك كما نورت قلبي . . .

كان من رأيه أن قراءة المصلين خلف الإمام في الصلاة تكفي عنها قراءة الإمام ، فتمسك إليه رهط من أهل المدينة يحاجونه ، قال : لا يمكنى مناظرة الجميع فولوا أعلمكم ، فاخترنا بلحاله أعلمهم ، قال : وهل إذا ناظرته أكون قد ناظرتمكم ؟ قالوا : بلى : قال : إن ناظرته لزمتمكم الحججة لأنكم اخترتموه فجعلتم كلامه كلامكم . وهكذا نحن اخترنا الإمام فقراءته قراءتنا وهو ينرب عنا : فأقروا بالإلزام .

كان يبحث عن علل النصوص فيجري الحكم الشرعى على مقتضاها لا على ظاهر الألفاظ ، فإذا سمع حديث النبي عن الزكاة أن في كل أربعين شاة شاة ، رأى أن مراد الحديث أن يتصدق صاحب الأربعين بشاة من الأربعين أو بما يعادل ثمن شاة . وإذا طبق حديث صدقة الفطر صاع من تمر أو شعير . قال : إنما يراد به أن يتصدق المرء بصاع أو ثمن صاع أو بدقيق الصاع .

وإذا فسر رواية أبي هريرة لحديث الرسول عن رد الشاة المصرة بعد احتلابها ورد صاع من تمر « وهى الشاة التى يُرْبَطُ ضرعها قبل البيع حتى يظن المشتري بها غزارة اللبن » فالمقصود عنده هو الصاع أو ثمن الصاع .

ذلك بأن أبا حنيفة يرى أن ضمان التلف في الشريعة هو أن يرد المثل إن كان التالف من ذوات الأمثال أو القيمة إن كان من ذوات القيمة .

أما المدرسة الأخرى فترى أنه لا يجزئ عن شيء من ذلك ثمنه أو مثله .

* * *

قالوا إنه يترك النصوص والأحاديث لأقيسته ! والحق غير ذلك : فأبو حنيفة هو القائل : « وكل شيء تكلم به عليه السلام فعلى الرأس والعين قد آمنا به

وشهدنا بأنه كذلك ، ونشهد بأنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر بشيء يخالف أمر الله ، ولم يقل غير ما قاله الله تعالى وما كان من المتكلفين . قال تعالى : (من يُطعُ الرسول فقد أطاع الله) . . . وإن كتب أبو حنيفة للملأى بترك القياس إلى الحديث .

قال زفر : لا تلتفتوا إلى كلام المخالفين فإن أبا حنيفة وأصحابنا لم يقولوا في مسألة إلا من الكتاب والسنة والأقاويل الصحيحة ، ثم قاسوا بعد عليها .
والشافعي نفسه يقول : « أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد وما يخال من مخالفتهم للسنة فعذرهم أنه لم يصلهم الحديث أو وصلهم ولم يثقوا به . . . »
إنما كان الأمر عند أبي حنيفة وصحبه أمر ثبوت السنة أو عدم ثبوت .
قال ابن خلدون : « واعلم أيضاً أن المجتهدين من الأئمة تفاوتوا في الإكثار من هذه الصناعة . وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين إلى أن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث ، فلهذا قلت روايته : ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة . . . وإنما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التي تعرضه فيها . . . »
وقديماً قدم على بن أبي طالب القياس على خبر الواحد

قال أبو يوسف : « ما خالفت أبا حنيفة في شيء فتدبرته إلا رأيت مذهبه الذي ذهب إليه أنجي في الآخرة وكنت ربما ملت إلى الحديث وكان هو أبصر بالحديث مني . . . »

وفي سبيل الاستيثاق من الروايات اعتمدت مدرسة الكوفة وأستاذها بسلسلة الكوفة ورواتها .

اجتمع أبو حنيفة والأوزاعي بدار الحنطين بمكة ، فسأله الأوزاعي عن سبب عدم رفع أيديهم عند الركوع في الصلاة وعند الرفع منه ، فأجابته : لأنه لم يصح عن النبي شيء فيه . قال الأوزاعي : كيف وقد حدثني الزهري عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة وعند الركوع وعند الرفع . قال أبو حنيفة : حدثنا حماد عن إبراهيم عن علقمة

والأسود عن ابن مسعود أن رسول الله كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ولا يعود إلى شيء من ذلك .

قال الأوزاعي : أحدثك عن الزهري عن سالم عن أبيه وتقول حدثني حماد عن إبراهيم فأجاب أبو حنيفة : كان حماد أفقه من الزهري .
وكان إبراهيم أفقه من سالم .

وإن كان لا بن عمر صحبة أو له فضل صحبة ، فالأسود له فضل كثير ،
وعبد الله هو عبد الله :

أما عن سلسلة الأوزاعي : فالزهري هو ابن شهاب وأما سالم فهو ابن عبد الله بن عمر وأبوه عبد الله بن عمر بن الخطاب وكان عبد الله كثير الاتباع للأثر ينزل منازل الرسول حيث كان يصل ، ويتعهد الشجرة التي جلس تحتها الرسول حتى لا تبيس ، لكنه كما قال عنه الشعبي وهو أحد خصوم الرأي : كان جيد الحديث ولم يكن جيد الفقه .

أما سلسلة أبي حنيفة فهي سلسلة الكوفة : حماد هو أستاذه حماد ، وإبراهيم هو إبراهيم النخعي ، وعلقمة هو علقمة النخعي الذي قال عنه ابن مسعود إنه ما قرأ شيئاً أو علمه إلا قرأه علقمة أو علمه ، والأسود هو الأسود بن يزيد بن أخى علقمة وتلميذ معاذ وابن مسعود : وأما عبد الله فهو عبد الله بن مسعود العظيم .
ولقد كان الأوزاعي يجادل في أبي حنيفة قبل أن يجادله أبو حنيفة .

قال عبد الله بن المبارك : « قدمت الشام على الأوزاعي فرأيت بيروت فقال لي : يا خراساني من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة يكنى أبا حنيفة ؟ فرجعت إلى بيتي فأقبلت على كتب أبي حنيفة فأخرجت منها مسائل من جواد المسائل وبقيت في ذلك ثلاثة أيام فجننت يوم الثالثة ، وهو مؤذن مسجدهم وإمامهم ، والكتاب في يدي فقال : أي شيء هذا الكتاب ؟ فزاوئته فنظر في مسألة منها ... فما زال قائماً بعدما أذن حتى قرأ قدرًا من الكتاب ثم وضع الكتاب في كفه ثم قام وصلى ثم أخرج الكتاب حتى أتى عليها ، ثم قال لي : يا خراساني من النعمان بن ثابت هذا ؟ قلت : شيخ لتيته بالعراق . فقال : هذا نبيل من المشايخ اذهب فاستكثر منه . قلت : هذا أبو حنيفة الذي نهيت عنه .. »

فلما اجتمعا بمكة جراه في تلك المسائل فكشفها له أبو حنيفة بأكثر مما كتبها عنه ابن المبارك : ولما افترقا قال الأوزاعي لا بن المبارك : « غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله وأستغفر الله تعالى لقد كنت في غلط ظاهر . الزم الرجل فإنه بخلاف ما بلغني عنه . »

وكما كشف الأمور للإمام « الأوزاعي » كان يكشفها للإمام « الثوري » : جاءه رجل يقيمهم الهم ويتعمده قال : حلفت بالطلاق لا أكلم أمراة قبل أن تكلمني . قالت : والعتاق لازم لا أكلمك قبل أن تكلمني — فكيف أصنع ؟ قال : اذهب فكلمها ولا حث عليكما ، فذهب الرجل إلى « سفيان الثوري » فهرول سفيان إلى أبي حنيفة يقول : « أتبيح الفروج » قال أبو حنيفة : « هو كذا : إنها لما قالت له وعلى العتاق إلخ .. شافهته بالكلام فانحلت يمينه ، فإذا كلمها لم يقع الطلاق » .

قال الثوري : إنك لتكشف ما كنا عنه غافلين .

حتمًا : كم كان صحيحًا قول الشافعي : « قول أبي حنيفة أعظم من أن يدفع بالهويونا » . وقول عبد الله بن المبارك : « رأيت الأكابر في مجلس أبي حنيفة صغارًا وما رأيت أحداً حاور أبا حنيفة إلا رحمته » .
بل قوله : هاتوا لي مثله وإلا فدعونا ولا تعذبونا .

• • •

ويتصل بمذهب أبي حنيفة في القياس مذهبه في الاستحسان وهو الأخذ بمصلحة جزئية في مقابل دليل كلي: يلجأ إليه إذا كانت نتائج القياس لا تستساغ بأن كان طرد القياس يؤدي إلى غلو في الحكم ومبالغة فيه فيعدل عنه في بعض المواضع ، وينمى المجتهد بما يحسن وقعه في النفس في تلك الحالة بذاتها ، فيفرد للوصف الذي تحسن به نفسه حكماً غير ما ينتجة القياس .

قال عليه الصلاة والسلام : « استفت قلبك وإن أفتاك المفتون ... »

ولقد نعوا على أبي حنيفة تركه القياس إلى الاستحسان ، قولاً بأنه خروج منه

عن قاعدته الكبرى وهى القياس ، لكن الذين آخذوه على الاستحسان طالما كانوا يستحسنون .

رووا عن مالك أنه قال : « تسعة أعشار العلم الاستحسان » .

إن القياس أداة تحركها عين باصرة ويدكلها إحساس ، والمفكر الذى كانه أبو حنيفة ليس هو الذى تستعبده أدواته ، ومن يصنع شيئاً لا يسجد له ، والرجل الذى يطبعه الحسن فى ذاته ، وفى كل أسباب حياته ، لم يكن ليتجنبه فى مقولاته .

قال محمد بن الحسن : كان أبو حنيفة يناظر أصحابه فى المقاييس فينصفون منه ويعارضونه حتى إذا قال استحسنت لم يلحقه واحد منهم لكثرة ما يورد فى الاستحسان فيدعونه جميعاً ويسلمون له . بل قال ابن شبرمة : إن كان يجوز لأحد أن يتكلم فى دين الله برأيه فأبو حنيفة إذا قال استحسنت .

حضر مع العلماء وليمة رجل زوج ابنتيه من أخوين فخرج الولي وهو يقول : أصبنا مصيبه عظيمة ، غلطنا فزفت إلى كل واحد غير امرأته وأصابها . قال سفيان : لا بأس بذلك كما حكم به على كرم الله وجهه ... فقال : أرى أن على كل المهر بما أصاب من المرأة وترجع كل إلى زوجها . فاستحسن الناس منه ذلك وأبو حنيفة ساكت ، فقال له مسعر : قل فيها . قال سفيان : وما عسى أن يقول خلاف هذا ... قال أبو حنيفة : على بالغلامين . فأحضرا ، فقال لكل واحد منهما : أتحب أن تكون عندك التى زفت إليك ؟ قال : نعم ، قال : فما اسم امرأتك التى عند أخيك ؟ قال : هى فلانة ، قال قل هى طالق مى . ثم زوج كلاً المرأة التى مسها ، وأمرهم بتجديد عرس آخر . فعجب الناس من فتياه بذلك حتى قام مسعر فقبله وقال ، تلو منى على حبه ... وسفيان ساكت لا يقول شيئاً .

وكلا الحكمين حق : فحكم على حكم الوطء بشبهة وهو يجب فيه المهر ولا يرفع النكاح ...

وحكم أبى حنيفة حكم يدرء ما يترتب من القسوة بعد إذا أفضت كل امرأة إلى رجل بما أفضت من أسنها مما تعلق به الأنفس . ولو صارت تحت غيره .

فكان حكم أبي حنيفة إلهاماً موفقاً ، لأن لصاحب عدة الوطء شبهة أن يعقد بالموطوءة فيها ، وفي ذلك من المصلحة ما أسكت سفیان وجعل مسعراً بقباه .

* * *

قال أبو حنيفة يوماً لتلميذه داود الطائى عن العلم : أما الآلة فقد أحكمناها .
قال داود : وهل بقى شىء ؟ قال الإمام : العمل .

فلنتقل عنه هذا التصوير للعلم إلى الآلة التى صيرت علمه مذهباً فى العالمين
وهى أداة الاجتهاد أو أداة القياس .

وضع أبو حنيفة يده على تينك الآلتين فاختلطتا فى يده وصارتا كالموائد العظیم
للقوى، وجرى اسمهما فى التاريخ على أنهما (الرأى) :: أو كما قال الشافعى أصبحا
اسمين لمعنى واحد . ذلك بأن الاجتهاد لا يكون إلا بدلائل والدلائل هى القياس ،
وإذا بهذه الحركة الفكرية الكبيرة تدب فى كل الآلات والمحركات، وإذا بحلقات
الفقه نضحى كعامل الإنتاج الكبير، حتى تكاد الآذان تسمع وقع العجلات ودق
الآلات وجلبة العمال خلال هذه القرون الاثنى عشر، وإذا بهذا الروح الخالق
يهيب الحياة للإنتاج الهائل الذى خلفه لنا القرنان الثانى والثالث ومازال يهيب الفقه
حياته كلها إلى الآن .

حقاً إن هاتين الآلتين لم تكونا من مخترعاته لأن النبى والصحابه قد اجتهدوا
وقاسوا ، لكن الرسول إذ يشرع هو صاحب الشريعة ، واجتهادات ابن الخطاب
عمرىات ليس يقدر عليها سوى الفاروق ، كذلك كانت اجتهادات أبى بكر
وعلى وما عداها من اجتهادات الصحابه والخلفاء ، لم تك إلا ومضات خاطفة لمعت
فى المناسبات ، أما الفتى الخراز كما يسميه ابن أبى ليلى ، فلم يكن أميراً للمؤمنين
ولا والياً ولا قاضياً ، لكنه جعل هذه الوضات العابرة شمساً تغمر الأكوان
كلها بالنور، واتخذ منها نمثلاً شامخاً يربط كل ما فى الوجود إلى قاعدته بخيوط
من الشعاع الذهبى المسمى بالفكر ، فيتحكم فيما حدث وفيما سيحدث ، وفيما قد
لا يحدث من الأمور .

وأيه جسارة كانت هذه الجسارة

لقد كان أبو بكر يقول : « أى أرض تغلنى وأى سماء تغلنى إذا قلت فى

القرآن مالا أعلم» وهو مقال يتم عن خطورة التعرض لتطبيق أحكام الكتاب ،
وتفسير آياته .

سئل أبي بن كعب وهو من فقهاء الصحابة المقدمين عن شيء فقال : أكان
هذا؟ قال السائل: لا . قال : فأجتمنا حتى يكون فإذا كان «اجتهدنا» لك رأياً .
وروى عن زميله زيد بن ثابت أنه كان إذا استفتى في مسألة سأل عنها ،
فإن قيل له وقعت أفتى فيها . وإن قيل له لم تقع قال دعها حتى تكون .

وكان عبد الله بن عمر لا يكثر من الفتوى تورعاً منه ، برغم أنه تصدى
لإفتاء الناس ستين عاماً ، وأن أهل الشام مالوا إلى توليته الخلافة فزهد فيها .

وكان التابعون يرفضون الجواب عما لم يقع كأن في الافتراض نجامة أو رجماً
بالغيب أو تحديداً للمستقبل ، مخافة أن يحلوا حراماً أو يحرموا حلالاً دون إلام تام
بالظروف .

سئل سالم بن عبد الله بن عمر عن مسألة فقال : لم أسمع في هذا شيئاً .
قال السائل : فأخبرني أصلحك الله برأيك : قال : لا . ثم أعاد عليه فقال :
أرضى برأيك . فقال سالم : إني لعلي إن أخبرتك برأيي ثم تذهب فأرى بعد
ذلك رأياً فلا أجذك .

قال ابن سيرين : أول من قاس إبليس . وما عبدوا الشمس والقمر إلا
بالمقاييس . وروى الليث بن سعد أنه جاء ابن شهاب الزهري بشيء من الرأي
فقبض وجهه كالكاره ، ثم جاءه بأحاديث من السنن فتهلل وجهه وقال : إذا
جئني فأتني بهذا .

وكان الشعبي يقول : « ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت : القرآن والروح
والرأى » .

ويقول : احفظ عني ثلاثاً لها بيان : إذا سئلت عن مسألة فأجبت فيها فلا
تتبع مسألتك أرايت (أى لا تفترض) فإن الله تعالى قال في كتابه :
(أرايت من اتخذَ إلهه هواهُ . . .) وإذا سئلت عن مسألة فلا تقس

شيئاً بشئٍ فربما حرمت حالاً أو حللت حراماً ، وإذا سئلت عما لا تعلم فقل لا أعلم : وأنا شريكك .

كان ذلك قبل أن يظهر علم أبي حنيفة ، وكان كذلك من بعد ظهوره : روى أسد بن القرات بعد إذ قدم إلى المدينة على مالك « وكان ابن القاسم وغيره من أصحابه يجعلونني أسأله فإذا أجاب يقولون قل له : فإذا كان كذا؟ فضايق على يوماً فقال لي : « هذه سلسة بنت سلسة ، إن أردت هذا فعليك بالعراق » .

وفي كلمة مختصرة كان أهل الأثر لا يأخذون بالرأى إلا اضطراراً ، مكرهين عليه إكراهاً ، ولا يستخرجون أحكاماً لم تقع بل لا يفتون إلا فيما يقع . لكن أبا حنيفة إذ يقدم للناس أداة الرأى أو القياس فيما وقع وفيما لم يقع ، لا يفرق مما قدمت يداه : بل يفرضها على الفقهاء فرضاً ، ويهيب بالعلماء أن ينهجوا طرائقه وأن يفيدوا منها ، ثم يقف إلى جانبها جباراً يملأ العين والسمع ويزحم حواس الناس أجمعين ، عقوداً ثلاثة أو أربعة من القرن الثاني للهجرة : معلناً للملأ أنها أدوات التي يخلق بها مالا يعلمون ، وأن العقل والنقل : أو الفكر والنص ، هما الأساس الذي تبنى عليه أصول الفقه الإسلامي وفروعه ، حتى إذا سجلوا عليه وزر هذه الأداة باهى بما سجلوا عليه وكافح في سبيله :

ذلك الرجل إذا لم يك مخترع هذه الأداة فإنه كاشفها الذي جمع القطر فصيره من فيض عقله بجاراً . والكشوف العلمية لم تخترع المكتشفات اختراعاً ، وإنما بصرت بها بين المجاهيل : والرسالات الفكرية كالكشف تهدي إلى الحق الكائن بعد أن يسبقها التمهيد والإعداد والارتداد :

لم تكن الكهرباء ابتداءً ، ولا الراديو ، ولا البسترة (التعقيم على طريقة باستور) ولا أمثالها ، وإنما هي كشوف هدت إليها الصدفة حيناً والكدح والضنى أحياناً :: وكذلك كان كشف المولد الذي قدمته مدرسة الكوفة إلى العالم الفقهي ، أثراً لجهد ناصب دام أربعين عاماً في عهد أبي حنيفة ، بعد أن ظل قرناً كاملاً من الزمان جنيئاً يضطرب في بطون التاريخ الإسلامي ، حتى قدمته يد أبي حنيفة إلى الوجود :

تري ماذا كان مصير الشريعة الإسلامية إذ هي وقفت في حدود ظاهر النصوص أو اكتف بمدلولاتها المباشرة . سواء في المائتي آية أو العدد القابل المسام به من الأحاديث أو غير المسلم به منها، أو بذلك الاجتهاد الفردي أو القياس العرضي ! تري ماذا كان مصير هذه الحضارة الإسلامية إذا لم تستند إلى قواعد مستنبطة من المنقول والمعقول من أصول الحنيفية السمحة التي يهدف إلى نشرها هذا الدين ؟؟ ماذا كانت صناعة هذه الآلاف من الملايين وهذه الهزات الفكرية وهذه الحياة الدائمة المتجددة ، وهذا العالم المتباين المتغاير ، وهذه القرون التي يحمل كل منها طوباعه ، وهذه البقاع والأجناس والحضارات ، من آسيوية إلى أندلسية ومغربية وهندية وصينية وأوربية ومصرية وغيرها ! ومن حضارة القرون الأولى إلى حضارة القرون الوسطى إلى حضارة الآلات !

إنما يرجع الفضل في سداد الشريعة الإسلامية لمطالب الحضارة الإسلامية إلى هذا المولد ، الدائم التوليد ، مثله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة يتضاعف نباتها ودوايك حتى يكسف القمران ، أو كالمتواليات الهندسية التي تجعل العدد البسيط (١٠ مثلا) مائة مليون في ثلاث عمليات فحسب ، أو كالجواهر الأصلية التي تخرج منها كل المركبات وتستجيب لجميع الحاجات :

لكأنما كان أبو حنيفة يعنى نفسه حيث يقول : « من يطلب الفقه ولا يتفقه مثل الصيدلاني يجمع الأدوية ولا يدري لأي داء هي ، كذلك طالب الحديث لا يعرف وجه حديثه حتى يجيئ الفقيه » .

والذي يقوله عن طالب الحديث هو القول الصحيح فيمن لا يتصرفون في النصوص ، فأولاء يلتزمون النصوص كأولئك يجتزون الدواء ، لا ينفعون به ولا ينتفعون : عجزوا عن أن يجعلوا من العقارات الناجعة ، مركبات نافعة ، تتلاءم في كمياتها وعناصرها مع أشخاص المرضى وأصناف الداء . أما الطبيب الحق فيأخذ من كل عقار ما يشق الداء كما يشاء خالصاً أو ممزوجاً أو متفاعلاً :

بهذا المولد الدائم ، وبالفكر النافذ ، لم يتردد أبو حنيفة عن أن يقول « أرى » و « رأيت » ويحكم على المستقبل ويرفع سماء الفقه على عمد الحرية ، فلم يبق في

الأمة مشاكل بلا حلول ، ولم يعد الفقه الإسلامى محجوراً عليه أن يملأ كل فراغ فى مستقبل الزمان ، لأن العلماء كما قال أبو حنيفة « يستعدون للبلاء ويتحرزون منه قبل نزوله ليعرفوا طريق الدخول فيه والخروج منه » :

فيا للفكاهة التى زعموا عن الشافعى تعريضاً بكتب أبى حنيفة وتلاميذه عندما سيق الشافعى ليحاكم فى بلاط الرشيد حيث قال : « .. قدمنا على هارون .: . ومعى خمسون ديناراً .: . ومحمد بن الحسن يومئذ بالرقعة فأنفقت الحمسين ديناراً على كتبهم ، فوجدت مثلهم ومثل كتبهم ، مثل رجل كان عندنا يقال له فروخ وكان يحمل الدهن فى زق له ، فكان إذا قيل له : عندك فرشان ! قال : نعم . فإن قيل له : عندك زئبق ! قال : نعم ، فإن قيل له : عندك خيزرى ! قال : نعم ، فإذا قيل له أرنى ؟ ولازق رءوس كثيرة ، فيخرج له من تلك الرءوس ! وإنما هى ددن واحد ! كذلك وجدت كتاب أبى حنيفة إنما يقولون كتاب الله رسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإنما هم مخالفون له .: . »

بلى هو دهن واحد حقاً كما نسبوا القول إلى فتى قريش العظيم ، لكنه أصول الشرع الإسلامى وقواعد الفكر السليم ، وهو دهن يخرج الزئبق والخيزرى والفرشان ، ويخرج من كل الأكل ومن كل الألوان ، كما أخرج هو منه كل شىء بعد قليل من الزمن ، وإذا كان كتاب أبى حنيفة قد خالفوا الشافعى فى فهم الكتاب والسنة فهو خلاف المجتهدين المتأبين أجمعين .

سمع ابن سريج رجلاً يتكلم عن أبى حنيفة فقال : يا هذامه : فإن ثلاثة أرباع العلم مسلمة له بالإجماع والرابع الرابع لا يسلمه لهم . قال : وكيف ؟ قال : لأن العلم سؤال وجواب وهو أول من وضع الأسئلة ، فهذا نصف العلم . ثم أجاب عنها ، فقال بعض أصاب وقال بعض أخطأ . فإذا جعلنا صوابه بخطئه صار له نصف العلم الباقى ، والرابع الرابع ينازعهم فيه ولا يسلمه لهم :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسن السؤال نصف العلم » ، وعلى هذا الحديث فرع الملك عيسى الأيوبى فقال مقالة ابن سريج :

وفى الحق إن الأسئلة نصف العلم لأنها الاستعراض النظرى للمشاكل التى

تحتاج إلى حلول : ولقد طالما عرف عن بعض الفقهاء قوة الحكم وضعف الاستعراض ، وهو ما يسمى بضعف السؤال وقوة الجواب ، كما عرف عن البعض قوة السؤال وضعف الجواب : ومن أجل هذا كان للأسئلة رجال وللأجوبة رجال :

قيل عن الحسن بن زياد إنه أحسن الناس سؤالاً ولم يكن جوابه على قدر سؤاله :

أما أبو يوسف فقد قيل إنه أحسن الناس سؤالاً وجواباً :
ولما مدح الشافعي محمد بن الحسن أثنى عليه « لبيانه وثبته في السؤال والجواب والاستماع . »

أما الشافعي فقال فيه محمد : « إن كان أحد يخالفنا وثبت له فالشافعي رضي الله عنه » قيل : ولم ؟ قال : « لتأنيبه وثبته في السؤال والاستماع » :

ولكل من الضعف في السؤال أو في الجواب أسباب لسنا بسبيل شرحها ، فبحسبنا التنبيه على أن هذه المدرسة أول من استعرض مسائل الفقه استعراضها الشامل وأجاب على فروضها الإجابات الضافية ، فكان لها فيما أصابت فضل السؤال وفضل الجواب ، وفيما أخطأت فضل السؤال وفضل الاجتهاد : وكان لها فوق هذه الأفضال جميعاً فضل السبق في التدوين والترتيب والتبويب :

أنجب الفقه الإسلامي هذا الإنجاب ، وتبارت في مضماره الأجيال اللاحقة مدفوعة بما يشبه الحمى نحو قرنين من الزمان ، وقف بعدهما التيار إذ أوفى على التمام ، حتى إذ مات الطبري سنة ٣١٠ ذهب بموته آخر الأولين ، وأصبح الناس ، من بعد ، وقد تهيأت أسماعهم لاستقبال ذلك الصوت الأجلس البغيض : أن قد أقفل باب الاجتهاد ! وانفتح باب التقايد ، وسرت عدواه كالوباء بتخطى القرون والقارات ، وانطبع العلم بطابع الحمود ، ومسخت روحه وأصبحت قضاياه كالألغاز :

• • •

ستذكر الإنسانية هذه اليد لأبي حنيفة عليها وعلى الإسلام فتسلكه في سلك المناضلين المتلائين في ظلمات الاضطهاد ، كلما صب فوق رؤوسهم من عذاب الجحيم برزت كالعسجد الحرزايهم : وتميزوا من الناس كما يتميز الماس من الفحم – وهما من أصل واحد – لأن الماس يتحمل الضغط العالي ولا يفنيه الحريق وكلما

صبت عليه النارردها أنواراً ، أما الفحم فهو الفحم ، ظلمات بعضها فوق بعض .
لا يصبر على الضغط وصلاحيته الأولى للوقود .

سيدكر المؤرخون ذلك الاضطهاد على أنه مجد الإمام الأعظم ، فلولم ينغص
إليه الحمقى رؤوسهم لدلوا على أنه لا وزن لعلمه ولا لعمله . فبقدر ما يوزن للرجل في
ميزان الرجال يوزن له من حقد الخصوم ومن هوى الأشباع ! ولا عجب إذا كان
الرجل صاحب الرأي هو الرجل صاحب الخصوم .

والعمریات الهائلة التي خلد بها مجد الإسلام لم تمنع أن يكون للفاروق خصماء
وأوا في وجهاته التشريعية واجتهاداته بعداً عما ذهبوا إليه من التمسك بظاهر الكتاب
والسنة ، وهو هو عمر الذي كان في يده من كنوز الإمبراطورية الإسلامية ما إن
مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولى القوة : ولكنه لم يك يملك إلا قميصه ودموعه وتقواه . . .
ولم تمنع منه المطاعن شهادة الرسول له أنه لم ير عبقرياً يفري فريته ، أي
يصنع صنيعه ، وأن « عمر معي : والحق مع عمر حينما كان » و « إن الله جعل الحق
على لسان عمر وقلبه » :

وقف عليه أعرابي فقال : يا عمر الخير جزيت الجنة : اكس بناتي وأمهنه :

قال عمر : فإن لم أفعل ماذا يكون ؟

قال الأعرابي : والله عنهن لتسألننه : إما إلى نار وإما إلى جنة .

فبكى حتى أخضبت لحيته ، وقال لغلامه يا غلام أعطه قميصي هذا لذلك

اليوم « يوم السؤال والحساب » لا لشعره .

ثم قال : والله ما أملك غيره .

ولم يك أبوحنيفة عاطلا من الفضل العمري وأشباهه بل هو كان قطب الزمان ،
زهادة وعبادة ، وقوة إيمان وسداد رأي ، وزعامة فكر ، وهي جميعاً أسباب خصومة
لأنها أسباب كرامة !

وسينسى الناس ما سال في هذه الحرب من جراحات اللسان والقلم : فأبو حنيفة

الإمام الأعظم لأهل السنة في علوم القرآن والحديث والتفسير لا يعرف اللغة العربية..!

فلا يجر المجرور ، وإن كانت تجره حروف الجر الغلاظ ... !

قال الليث بن سعد : « بلغني أن أبا حنيفة يريد الحج فخرجت إليه قاصداً ، فلقيته بمكة ، فسألته عن مسائل كثيرة في أبواب متفرقة وسألته عن مسائل الجنائيات وعن قتل الخطأ وشبه النعمد فقال لي في بعض ما أجبني ، (وإن ضربه بأبوقبيس) — جبل أبي قبيس — وفي رواية أخرى بأبا قبيس ، فقضينا المناسك ورجعنا ، ثم بلغني بعد ذلك أنه يريد الحج فخرجت إليه قاصداً فأردت أن آخذ عليه حرفاً واحداً ما قدرت عليه ، فما أدري أندرت منه تلك الكلمة أو تكلم بحجة . »

في الأدب الليثوي لحماقة الخصوم! إنها لم تندرن من أبي حنيفة وإنما تكلم بحجة . فقد يكون تكلم عن أبي قبيس باعتباره عالماً والعلم لا يغير . وإبدال الواو في « أبوقبيس » ياء عند الجر أو ألفاً عند النصب واجب يعرفه الأحداث فلا يجادل فيه إمام الأمة الأعظم ، المفسر ، الكاتب ، المتكلم ، الأستاذ ، الفقيه .

تلك واحدة في اللغة ، وهذه أمثالها في العقيدة .

فأبو حنيفة مرجئ إذ يقول إن العمل ليس ركناً للإيمان .

وأبو حنيفة زنديق ، تاب ، ثم فسق عن أمرربه فترندق مرة أخرى ، ثم تاب .
وإنه كافر تاب من الكفر مرات !

بل هذا رجل يقول : أراه كان يهودياً !

وهؤلاء آخرون يقولون : كان جهمياً !

فلندع قولهم إنه كان زنديقاً أو كافراً أو يهودياً .

أما أنه كان من أشياع جهم بن صفوان الذي كان يقول إن الإنسان مسير لاخير وينفي صفات الذات الإلهية ، ولا يشترط للإيمان النطق به ، فحسبه تكديباً أن جهماً قصد إليه يجادلوه فأجابه بقوله : « الكلام معك عار والحوض فيما أنت فيه نار : » ثم طفق يقرع حججه واحدة إثر واحدة حتى فصل عنه جهم وهو يقول : « لقد أوقعت في الخلد شيئاً فسأرجع إليك » .

وكيف يكون جهمياً من كان مذهبه أن الصلاة خلف الجهمي لا تجوز ؟

أما أن أبا حنيفة مرجئ ، فلعلها من تهم الخوارج أو المعتزلة الذين لا يقولون بالإرجاء . فليس ثمة ريب في أن عامة المسلمين مرجئون على المعنى الذى شرحناه من قبل ، لا يكفرون مرتكب المعصية كالخوارج ولا يجعلونه في منزلة بين المنزلتين كالمعتزلة ، وإنما يرون له التوبة والمغفرة ، ويتركرون حسابه إلى الله :

قال عمر بن حماد بن أبي حنيفة : « أقمت عند مالك مدة فلما أردت الرجوع قلت لعل الحساد ذكروا جدى عندك على خلاف ما كان عليه فأذكرك مذهبهم فإن كان فيه رضاك فذاك وإلا فعظي : إن الإمام كان لا يخرج أحداً من الإيمان بذنب . قال أصاب : قلت : وكان لا يكفر قاتل النفس قال : أصاب فمن قال غير هذا فقد كذب وأخطأ : قال : بلغني أنه كان يقول : إيماني كل إيمان جبريل : قلت : بلغك الباطل كان يقول إن الله تعالى بعث جبريل عليه السلام إلى النبي صلى عليه وسلم كما بعثه إلى من قبله فأمره أن يدعو الناس إلى الإيمان : فالإيمان إيمان واحد لا إيمانان أو ثلاثة ، ولا إيمان هذا وإقراره غير إيمان ذا وإقرار ذا . فتبسم كالراضى به ولم يقل شيئاً . قلت : وكان ينكر الشك في الإيمان . قال : وما الشك فيه ؟ قلت عندنا أقوام لا يقولون إننا مؤمنون حتى يستثنوا أو يقول أحدهم لا أدري أنا مؤمن أم لا . فأنكر وقال : من يقول هذا . »

ذلك قول مالك في قول أبي حنيفة .

والناس يرون أبا حنيفة بأعينهم رجلاً هو المثل العالى همة في الدين ، يحيا حياة طويلة ليست في عداد الزمان إلا سجدة مخلصة لله ، ولا يبقى من ماله الضخم إلا النفقة ، ويسمعونه بأذانهم في المسجد ، وفي كل مكان ، يجاهد بقلبه ولسانه وييده حتى تكون كلمة الله هي العليا . وهم يقرءون ويستمعون إلى كتبه « العالم والمتعلم » و« الفقه الأكبر » وكتابه في الأرجاء إلى عالم البصرة عثمان البتي ، وإلى القواعد الواردة في الوصية المعزوة إليه ، وفيها جميعاً الحجج الباهرة على أهل الإلحاد والبدع . وهم يعرفون إفحامه لأهل الإلحاد ويتناقلون تمثيله للعالم بالسفينة ، ولخالقه بالسفان ، حيث يسائل المشككين : « :: ما تقولون في رجل يقول لكم إن سفينة مشحونة بالأحمال ، مملوءة بالأممعة والأثقال قد احتوتها في بلجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهي من بينها تجرى مستوية ليس فيها ملاح يجرها ويقودها . هل

يجوز ذلك في العقل؟ فقالوا: لا، قال: فيا سبحان الله إذا لم يجز في العقل وجود سفينة تجرى مستوية من غير متعهد ولا جرف فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها من غير صانع وحافظ ومحدث لها..؟):

فلم يبق إلا التهمة التقليدية التي وجهت من قبل إلى السيد المسيح وهي أن أبا حنيفة يجرّض على عدم التعاون مع السلطان. لكن السلطان ليس أذنأ لهم فلا ياف لفهم ولا تقع الواقعة. فلم يبق في جعبة السهام إلا أخيها. سهام القذف والكلم التوارص:

فأبو حنيفة من أبناء السبايا... ومن الدجاجلة،... بل إنه ليروى عن شريك أنه قال:

«لأن يكون في حي من الأحياء خمارة خير من أن يكون فيه رجل من أصحاب أبي حنيفة» وإنه لم يولد في الإسلام من هو أشأم منه على الإسلام... وهو كان جرباً. يراه الرجل مقبلاً نحوه في المسجد فيقوم قائلاً لأصحابه، قوموا لا يعرنا بجره... فيقومون...

وهو لا يثق بنفسه فيحض تلميذه أبا يوسف على الشك في مقولاته بقوله:
لا ترو عني فإني والله لا أدري أنخطئ أنا أم مصيب!

ثم إنه أجرأ الرجال على الرجال. قالوا... إن رجلاً جاءه من خراسان يقول:
عندي مائة ألف مسألة أريد أن أسالك عنها: قال أبو حنيفة: هاتها. وتساءلوا
فيما بينهم أسمعتم أجراً من هذا؟

والجواب أن الجريء على الحق ليس هذا المحيب وإنما ذلك السائل الوافد من خراسان لا يعرف عنه إلا أنه إمعة من الإمعات، ومع ذلك يزعم أنه يعي مائة ألف مسألة! فن أين له المائة ألف؟ ومن أين له عقل يحفظها أو لسان يسطها!!
ولماذا لا يجيء ذلك اللوذعي بمسألة أو بضع مسائل من المائة ألف ليرى الناس من آيات إعجازه الكبرى؟

لقد كان جواب أبي حنيفة له جواب أستاذ عذب الروح يسمو على الأغلوطات.
ومن قبل أبي حنيفة كان ابن سيرين إذا سئل عن مسألة فيها أغلوطة قال
للسائل: أمسكها حتى تسأل عنها أخاك لا بليس!

والأغلوطات - كما فسر الأوزاعي نهى النبي عن الأغلوطات - هي صعاب المسائل .

سأل عمر بن قيس مالك بن أنس عن محرم نزع نأبي ثعلب فلم يرد عليه شيئاً .
أما أبو حنيفة فلم يسهف المسائل بالكلام كابن سيرين ولا بالامتناع عن الكلام
كابن أنس . لكنه أطاش حلم المسائل بأن جعل نفسه رهن أمره فسفه الرجل نفسه
وأخزاه الله .

وأما عن الرد على مائة ألف من المسائل فإن قواعد أبي حنيفة وفروعها تحوى
أكثر من ذلك وأمثاله لمن يشاء .

• • •

يا لله أصحیح أنه لم یولد فی الإسلام من هو أشأم من أبی حنیفة علی الإسلام !
أصحیح أن وجود أبی یوسف أو محمد أو داود الطائی أوزفر وأمثالهم فی حی من الأحياء
شر علیه من وجود خماریبیع فیہ بنت الحان !

أم أنه كما يقول الرسول عليه السلام : « ويل لعالم أمره من جاهله » .

أم أنه المجد وارتفاع المقام يعنيه محمد بن الحسن إذ يسمع قرح الخصوم في
أستاذه فيقول :

مחסدون وشر الناس منزلة من كان في التامس يوماً غير محسود
أو كما قال تلميذه الآخر عبد الله بن المبارك :

حسدوا أن رأوك فضلك الله بما فضلت به النجباء

أو كما قال هو ذات يوم إذ أقبل عليه رجل ، فسأله : من أين أقبلت ؟ قال

من عند شريك - وكانت بينهما وحشة كما رأيت - فرفع رأسه وقال :

إن يحسدوني فلاني غير لأئمتهم غيري من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فدام لي ولهم ما بي وما بهمو ومات أكثرنا غيظاً بما يجد

لقد كانت قاعدة « أن السلف لا يخالفون » في قدسيتهما عندما أعمل فيها

معاولة ، ولم يك شاع في الوسط العلمي أن أحكام المعاملات ليست تعبدية ، وعزيز

على أنفس المتعتين أن يقبلوا الاتجاه القاضى على ما ألفوه دون أن يتجمعوا ضده ،

أو يصبروا على الجهر والإلحاح والتحدى بأن رأى إنسان من الأناسى يعتبر مصدراً

للحكم على حاضرهم وماضيهم ومستقبلهم !

أم أنه ليس الحسد ، وليس الجهل ، ولا التعصب هي التي جعلت على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، وإنما هي الخصومة القديمة الضاربة بجرانها بين القديم والجديد .

لم تك هذه التهم إلا تهماً تقليدية يلقاها الباحثون على صفحات التاريخ في كل زمان ومكان ! شنشنة عرفها رجال الفكر من أعدائه ومن أديبائه ، تدعى أياً ما تدعى ، بأسماء مختلفة أو متشابهة ، لكنها المسمى واحد قديس في المشرق بالزندقة . تحويراً لتعبير فارسي يراد به الإلحاد ، ويسمى في الغرب بالهرطقة يراد به - في الواقع - أعداء الكنيسة في الاعتقاد .

لكأنما تضيق صدور سكان هذا الكوكب الواسع بأسماء النابغين وإن كانت الدنيا لا تضيق بأجسادهم ! وإلا فقيم لا يطبق الناس قيام المجد إلا بعد أن يزيل صاحبه دنياهم ، فيصبح معنى من المعاني وذكراً في الزمن !

كأنما ترسل النفس القوية على الأرض شعاعاً تعشى من ضيائه الأبصار ، فإذا صعدت إلى بارئها تنفس الصعداء هزلاً الملتصقون بالثرى . وفتحوا أعينهم في أفق أوسع وألح !

هنالك يبايع الأحياء موتاهم وقيمون التماثيل لمن أخلى مكانه في الوجود . . فإذا بايعوا الأحياء بايعوهم مجبرين غير مختارين ، ورضوا بهم كما يرضون بقضاء الله الذي لا يرد ، وبطواهر الطبيعة التي لا تقاوم .

لا جديد تحت الشمس ، ولا جديد فيما قارفه خصوم أبي حنيفة في عهده^٣ ، ولا فيما صنعه خصوم الفكر من قبله ومن بعده : لقد فقد (ليكرج) من أئني عام قبل ذلك إحدى عينيه من جراء إحدى شرائعه !

إنما الحديد في صدد أبي حنيفة أن الولاة لم يسمعوا ولم يخذعوا ، على فرط ما استمعوا وما انخدعوا في حوادث الإيقاع بسواه . فلعلها بركة السنة على إمام أهل السنة الأعظم ، فلم تسمل له عين ولم تقطع له ذراع ، ولم تصبه محاكم التفتيش

ولا مذابح العقائد ، وحمى التاريخ مدرسة الكوفة وإمامها . فلم يقع ما وقع في أثينا وروما وبيزنطة ومدريد وباريس وبغداد وغيرها في الشرق والغرب ، في عهد الحضارة الأولى أو في القرون الوسطى أو الحديثة .

هنا لك ترى في العصور الأولى سقراط يحكم عليه بالإعدام خمسمائة قاض من الجماهير . لأنه يفسد عقائد الأثينيين ! وأرسطويهرب خوفاً من تهديد مواطنيه ويموت في مهربه ! !

وترى في مطلع العصر الحديث ، بين مصدق ومكذب ، (كلفن) زعيم الإصلاح الديني بعد مارتن لوثر ، فارس الحلبة لاتهام برنوبمحنة الهرطقة ! وهناك حوكت «القديسة» جان دارك وسرفانتس وكثيرون جد كثيرين من رواد العقل البشرى !

وهنا تجد المعتم - بطل عمورية - وأخا المأمون - يجلد ابن حنبل بالسياط والخالد والمجلود صائمان ... ! وابن عبد القدوس ، والبويطي ، وأحمد بن نصر ، ومحمد بن نوح ، وابن تيمية وأمثالهم .

هنا وهناك لقي الفكر الإنساني من العذاب ما تندى له الجباه . . .

لقد صعد هذا الفكر الإنساني درجات المشتقة ، وهوت عليه المقصلة ، وشرد ، وجرم الألقاب ، وذاق عذاب الحريق ، لكنه كان يبعث شعاعه على عمد المقصلة ويملاً الأرجاء بالإشراق .

وكانت غيابة السجن له أولى درجات الخلود .